

آية القيسي تكتب: العاشقة البصرية التي أفنت حياتها في الحب!.. مغبون من يجهلها

من جنوب القلب، من البصرة تحديداً أفنت سيدة بصرية حياتها في تأسيس مذهب يعنى بالحب الإلهي، لتمضي هذه القديسة في درب لم تالفه نساء جيلها، ولتضرب مثال للمرأة الزاهدة والعارفة.. وفي شعرها رسائل يغطيها المتصوفون والباحثون عن الجمال والحب..

عندما نسمع بمفردة العشق الإلهي أو الحب الإلهي تأتي بمعنى التصوف وأول ما يراود أذهاننا أن وجود مؤسسي هذا المذهب أو من يمثلوه هم في تركيا أو الدولة العثمانية، لكن هل يعلم البعض منا أن أحد مؤسسي العشق الإلهي هي سيدة بصرية النشأة!

اليوم أنا بصدد الحديث عن أحد مؤسسي "العشق الإلهي" بمحافظة البصرة وهي رابعة العدوية أو رابعة بنت إسماعيل و تُكنى "بأم الخير" كما ذكر ابن خنكان صاحب كتاب وفيات الأعيان.

و لدت رابعة في البصرة عام (١٠٠هـ / ٧١٧م)، من أب فقير وهي الأبنة الرابعة له و يعود سبب تسميتها برابعة كونها هي البنت "الرابعة" وهي أيضاً من عشيرة القيسيون.

توفي والدها وهي بعمر العاشرة و ترك لها أخواتها الثلاث، مما جعلها تتحمل مسؤولية العيش والفقر والحصول على لقمة العيش لها ولأخواتها، وعلى أثر لقاء لها بالصوفي البصري أرياح بن عمرو القيسي تغيرت حياة رابعة واتجهت نحو أبواب الزهد و التصوف، وهنا بدأت رابعة بطرح حياة اللهو والغفلة متجهة إلى ربها بكل ما لديها من حب و صدق تجاهه.

وهنا من الضروري أن نعرف ما هو العشق الإلهي؟. العشق الإلهي يعني عبادة الله من أجل محبته و ليس خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة، ونشأ الحب الإلهي في القرن الثاني الهجري، حيث كان الناس قبل ذلك يعبدون الله خوفاً و رهبةً، و يميل مؤرخو التصوف الإسلامي أن رابعة هي أول من اخرجت التصوف من الخضوع إلى عامل الحب، و انها أول من استخدمت لفظ "الحب" استخداماً صريحاً في مناجاتها إلى الله وفي اقوالها وأشعارها أيضاً.

و من المهم ذكره ايضاً أن رابعة تمتعت بموهبة الشعر و تغلغت هذه الموهبة الحب الصادق و المتوهج،
حيث كتبت أجمل الاشعار و الكلمات تعبيراً منها عن حب الخالق ورسالة لمن حولها ايضاً، على سبيل
المثال لها قصيدة بعنوان "عَرفتُ الهوى"

تقول بها :

عرفت الهوى مذ عرفت هواك

واغلقت قلبي عمن سواك

وكنت أناجيك يا من ترى

خفايا القلوب ولسنا نراك

أحبك حبين حب الهوى

وحباً لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى

فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له

فكشفك للحجب حتى أراك

هذا جزء من القصيدة، و جزء من عظمة شعر هذه السيدة المولعة بحب الخالق، ولها الكثير من القصائد
تعبيراً منها عن حب من تعبد ليلاً ونهاراً، والى اليوم قصائدها يتغنى بها عامة الناس قبل

المتصوفون، و تعتبراً ألهاماً كبيراً لهم. رابعة لم تكن محط في اهتمام المتصوفين فقط بكل كانت موضوع لدراسة نشرتها المستشرق الألمانية "آنا ماري شميل" في كتابها الصادر بعنوان "روحي انثى" فتناولت مفهوم الأنوثة في الاسلام وركزت على حضور النساء في عالم التصوف، وقالت : "أن رابعة هي المرأة الاولى التي تدخل فكرة الحب الألهي الطاهر في الفكر الصوفي".

وتقول شميل "ان رابعة كانت فاتحة مرحلة إبداعية جديدة في الحياة الصوفية فقد صارت شيخة مدرسة التصوف في العراق في زمنها ، ومن بين كثير من اتباعها من الصوفية الذين كانوا يعيشون في بغداد وما حولها من المدن العراقية".

تختلف الرويات حول تاريخ وفاة العدوية البعض يقول انها توفيت عام ١٨٠ هـ و رواية أخرى تقول عام ١٨٥ هـ ، كما دفنت رابعة حيث ما نشأت في البصرة بمقبرة الحسن البصري، حيث تضم مقبرة البصري، رفات كثير من الشخصيات الدينية والثقافية والسياسية البارزة، من بينها رابعة العدوية، والشاعر الكبير بدر شاكر السياب ايضاً، والعديد من الشخصيات و الاسماء البارزة.

ربما النخبة و المثقفون يعلمون عن رابعة، من يعرف أننا بلد له مساهمة كبيرة و فذة بعالم التصوف او العشق الإلهي، بل و نملك شخصية مؤسسة له وهي رابعة، و الهم من ذلك ان رفاتها موجودة على ارضنا، ماذا لو يعاد هذا المجد و التاريخ ، و نسمع عن تأسيس مسجد لرابعة و يكون قبلة للمهتمين و السائحين ايضاً ؟

و اخيراً لا يسعني الا ان أقول أننا بلد ملهم للكثير و كأن ارضنا عين تفيض بالأبداع سابقاً و الى اليوم .

و ختاماً كان لرابعة رسالة لكل انسان وهي:

"أن نحب من أحبنا اولاً وهو الله"